

## الفيض عند جلال الدين الرومي "حكاية الخليفة والأعرابي" نموذجاً

### د. خولة شيخة

#### ملخص الحكاية :

في حوارية جميلة تجلّت فيها عبقرية جلال الدين البيانية نظم رائعته " الخليفة والأعرابي " ، هادفاً إلى تربية الشخصية الإسلامية وبنائها ، بتزويدها بأدلة الحجج الصوفية في صراعها مع قوى الشر و الجبروت ، لتعنيها على مقاومة شهوات النفس والتحكّم في أهوائها بروح سامية عالية أعطت للغرب في عصرنا الحالي صورة الإسلام المثلى فقال هالمان عن ثقافته : " إنها جوهر العقيدة الإسلامية المتحرر من القيود ، الجوهر الذي اعتقد بأنه يحتاج إلى التأمل في مرحلة أصبح فيها الإسلام مقروناً بالإرهاب "2 .

إذ ركز الرومي على نقاء الشخصية الإسلامية ، لأنها فائضة عن قدس الأقداس بمناشدته العودة إلى الذات القدسية الكاملة وعشقها لتبليغ لتعاليم الدين الإسلامي ودلالة على بعد الإسلام عن التطرّف .

بدأ جلال الدين الرومي الحكاية بالحديث عن خليفة اشتهر بالكرم ، ووصل بشهرته هذه إلى أرجاء المعمورة ، لتنتهي إلى سمع أعرابي وزجته<sup>3</sup>، يقطنان في الصحراء ، ويعيشان في حالة ضنك شديد ، فأشارت الزوجة على زوجها أن يمتل أمام الخليفة ، علّه يحظى بجوده، إلّا أنّ الأعرابي عدم الوسيلة في البداية ، ثمّ ما لبث أن عثر على بئر ماء حلو ، حمل جزءاً من مائه في إبريق هدية قاصداً به وجه الخليفة ظناً منه أنّه أهدى إلى الخليفة كنزاً من كنوز الجنة ، ولم يدرك قط أنّ هناك نهراً عظيماً يمرّ ببغداد ، ولكنّ الخليفة الذي استغنى بكماله عن هدية الأعرابي قبلها برحابة صدر ، وأغدق عليه من كرمه ، وأمر جنوده بإعادة الأعرابي إلى وطنه عن طريق النهر .

هذه هي خلاصة القصة ، التي وشاها الرومي باستطرادات وتعليقات مستخلصاً منها الحكمة التي تتطوي عليها أفكاره ، ليجعل سمة القصة عنده عدم تماسك وحدتها<sup>4</sup>، بسبب الطموحات التي نشدها من كتاباته القصصية وهي الوصول إلى الإنسان الكامل<sup>5</sup>.

#### البعد الصوفي للحكاية :

1: وردت هذه القصة بصورة مختلفة في كتاب جوامع الحكايات ولوامع الروايات الذي أكمل محمد عوفي تأليفه عام 625 هـ / 1228 م ونسرد هنا بعضها ، فأما الخليفة فالمقصود به المأمون ، وأما الأعرابي فأضطر إلى الهجرة عن دياره إذ اعتراها جفاف ومجاعة ، وقد اعتزم الرحلة إلى بلاط الخلافة في بغداد مؤملاً في العطاء ، وحينما تجاوز مضارب قبيلته عثر على بئر رقدت فيه المياه ، فأجتزبت الأرض ملوحتها وحينما تذوق الأعرابي ماء البئر عرته الدهشة لأنه لم يتذوق هذا الماء من قبل ولم يعرف أن مثل عنوبته موجودة في الدنيا فظن أنه من الجنة وتخبره ليكون هديته إلى الخليفة الذي كان في رحلة صيد إلى الكوفة وقد سلك الأعرابي طريق الصحراء ولما وصل قدم هديته لمولاه فتقبلها منه وأمر أن تملأ الجرة التي حمل بها الماء ذهباً شريطة أن يعود من الطريق نفسه الذي قدم منه ( الصحراء ) ، لأن الخليفة أراد أن لا يتقدم الأعرابي أكثر فيرى نهر دجلة فيصيبه الخجل والحزن من جراء هديته المتواضعة ، وقال لحاشيته : "إني لأخجل لو أن رجلاً جاء بهدية ، ثم انصرف من حضرتي مهانئاً مشيعاً بالعار " ، أخذت هذه القطعة من الكفافي ، محمد عبد السلام ، "مثنوي جلال الدين الرومي " المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ،

ص : 537/1 وما بعدها يتصرف

2: دالررمليل، وليام ، " جلال الدين الرومي ينافس شعراء الحدائث الأمريكية - ترجمته بتصرف ، مريم جمعه فرج عن الخليج الثقافي ، الانترنت ص 2 .

3: إنّ شخصية الزوجة لم تظهر في رواية عوفي ، وأجرى جلال الدين بينها وبين زوجها صفحات متعددة من رائع الحوار ، وجعلها رمزاً للنفس الحسية.

4: الكفافي ، المثنوي ، جلال الدين الرومي ، وكذلك مولوي ، مراد كمال الدين " قصص مثنوي مولانا جلال الدين الرومي " ط، 2001 ، ص 24

5: ابن عربي "أول من استعمل تعبير الإنسان الكامل في الفكر الصوفي والفلسفي الإسلامي هذا من ناحية اللفظ، أما المضمون فقد استنقاه من ينابيع متعددة لم تؤثر في ابتكاره وفرديته" إنظر ، الحكيم بسعاد "المعجم الصوفي" بيروت بندرة للطباعة والنشر ط1، 1981، ص 160.

انطوت قصتنا على كثير من الرموز الصوفية فالخليفة عند انيماري شيمل هو النهر الكبير دجلة ، المعرفة الإلهية<sup>1</sup> لقد كان بحراً للجوهر الصافي في العطاء .... إله كان ماء الحياة وبحر الكرم .....<sup>2</sup> وقد وصل الأعرابي إليه ليغتترف من منهل العلوم الإلهية التي لم تمتلك بداية ولانهاية فكانت أزلية سرمدية.

أما الأعرابي؛ فممثل رمزين صوفيين؛ الأول العقل ، عندما حاور زوجته؛ النفس الحسية الحيوانية يقول الرومي : " واعلم أن الزوج هو العقل وأن الزوجة هي الحرص والطمع وهذان مظلمان منكران ، وأما العقل فهو الشمع المنير"<sup>3</sup> ، وكذلك قوله : " فهذه المرأة وهذا الرجل نفس وعقل وكلاهما ضروري لإظهار الخير من الشر " .

" فإن المرأة تريد حاجة المنزل ، يعني الأبهة والخبز والخوان والجاه "

" فالنفس مثل المرأة تتشد التراب حيناً وتتشد المجد حيناً آخر لكي تحقق مأربها " .

" وأما العقل فليس بمدرك لتلك الأفكار وليس عنده غير خوف الله "<sup>4</sup> .

أما الرمز الثاني للأعرابي فيدل على الباحث عن الحقائق الروحية ما بين غير طالب لها عندما عدم الوسيلة وباحث عنها حريص على تلقئها في عثوره على الهدية وتقديمها للخليفة لتكشف أمامه الحقائق الأزلية يقول الرومي : " لقد قدمت إلى هنا على أمل الدينار ، فلما وصلت أصبحت ثملاً بالروى ، وقد جئت لأنال بالخبز فحملتني رائحة الخبز إلى صدر الجنان "<sup>5</sup> .

دلّت مادية الهدية الإبريق على الجسم وماؤها على الروح ، و قبول الخليفة للهدية وإرساله الأعرابي إلى نهر دجلة فعنى وصول السالك إلى بغيته ، من خلال الاعتراف من بحر العلوم الإلهية وتكشف أسرارها .

#### الفيض في الحكاية:

ما بين نظرية الفيض كفكرة أيديولوجية صوفية، ومجتمع يتجه نحو هاوية الانحطاط بسبب الصراعات، ما بين الإنسان عقل ومادة وما بين أصداده الكثيرة حاول المتصوفون أن يؤسسوا لمشروع حضاري محوره الإنسان، وغايته السعادة البشرية المبنية على أساس الكمال في الإنسان الفرد في علاقته بالحق من جهة وبالمجتمع من جهة أخرى، ولأن ثقافة الرومي امتداداً لتجربة المتصوفين، فرأى أن الإنسان أول الفكر وآخر العمل، فأسرع بيانه الخطوفي سرد قصة الأعرابي الساذج لتشعر وكننا نعيش معه مناجاة باح بها إلى أسماعنا ولامس بها شغاف قلوبنا للوصول إلى تربية اجتماعية سليمة لأولئك البسطاء الذين لا يملكون من العلم شيئاً ويؤمنون بأنهم فوق المجتمع.

أيها الأعرابي! إنك فيض مقدس من الأعيان الثابتة خرجت من العالم المعقول إلى العالم المحسوس، وها أنت تتصارع مع زوجتك المتدمرقة هي تحاورك وتشكو الفقر غير قانعة بما قسمه المليك لها، ألا تعلم أن مشاركتك لها يعني أن مادتك قيدت صورتك وعييتك، وأثرت فيك فنزعت إليها مرهوناً لطبيعتها عاقداً الصلح معها، أين المطلق الذي فيك؟

ألم تجش عن الفيض الأقدس عندما تجلت الذات الأحادية لنفسها في جميع الممكنات التي يتصور وجودها فيها بالقوة<sup>7</sup> ؟ فكنت إحداها .

يا من ظننت في نفسك التكامل المعرفي ما أشد سذاجتك وأنت تحمل إبريق الماء الحلو إلى الخليفة في بغداد حيث دجلة العظيم بسبب جهلك بحقائق الأمور !

أين معارفك الإلهية، وأين أنت من الفيض؟ لم تح أن الذات الإلهية فاضت فيضاً طبيعياً غير قصدي لم يبدأ ولم ينقطع؛ لأنه سرمدية :

-عندما كان العالم كله وعاءً مليئاً بالعلم والجمال

-وقطرة واحدة من دجلة حسنه لا يكاد هذا العالم يسعها بين جوانبها

لقد كان كنزاً مخفياً، لكتبه مزق(حجب الخفاء) وجعل الأرض أكثر إشراقاً

1: شيمل، انيماري ، الشمس المنتصرة ، دراسة آثار الشاعر الإسلامي جلال الدين الرومي ، ترجمة عيسى العاكوب ، ط 1 ، مؤسسة الطباعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي ، ص : 151 .

2: الكفافي ، المثنوي ، ص : 285 /1 .

3: الكفافي ، المثنوي ، ص : 342/1 .

4: الكفافي المثنوي ، ص : 321/1 .

5: الكفافي ، المثنوي ، ص : 335/1 .

6: انظر هذه الرؤية عند كليب بسعد الدين "البنية الجمالية في الفكر العربي الإسلامي" ط1 ص63.

7: انظر تعريف الفيض المقدس والأقدس عند ابن عربي في فصوص الحكم تحقيق وتعليق: أبو العلا غيفي دار العربي بيروت بلاط ص8 وما بعدها .

- لقد كان كنزاً مخفياً<sup>1</sup> فجاش فيضه الغزير، فجعل الثرى سلطاناً يرتدي الأطلس<sup>2</sup>.
- أيها الأعرابي ! إن صورتك الشبحية وجدت بالفيض الأقدس، ولكن مانيتها تعينت بالفيض المقدس فتنبه إلى المعنى<sup>3</sup>.
- لأنك ممثل الوجود الإلهي على الأرض، فإذا قلت: إن الوجود المطلق ليس ميسراً على هذه الأرض، أقول لك: إن تحقيقك لجزء قليل منه سيحملك إلى آفاق عظمى تحلق فيها إلى عوالم متميزة :
- وهل تعلم متى يصبح الحس تمييزاً؟ إنه كذلك حينما ينظر بنور الله؟
- فإذا حلّ نور الله في حواسك، فأنت لا تكون عبداً للأثر<sup>4</sup>
- وحدد موقفك في أي صف يكون، وميز بحس الرؤية القلبية لا بحس الرؤية البصرية وتجرّد من الإثنية، عد إلى الذات وإلى الوعي، وابدح عن وسيلة لهذه العودة فإن كانت وسيلتك إلى هذه العودة إبيريق الماء، فأجعله نظيفاً وحافظ عليه ليكون أول درجات الكمال وعندما تصل إلى الذات العلوية ستستقبله منك مع أنّ كمالها المطلق مستغن عن هديتك، وستفيض عليك بالوجود عندها عليك أن تعشق هذه الذات لأنك جزءاً منها ف:
- إن عشاق الكل ليسوا بعشاق للجزء فإن من اشتاق للجزء عجز عن الكل
- وإذا ما أصبح جزء عاشقاً لجزء فسرعان ما يعود المعشوق إلى كله<sup>5</sup>
- فعندها إن انكسر الإبيريق فسنبقى ماؤه وستزداد كمالاً
- فيا من دفعتك الحمية إلى أن تضرب الإبيريق بالحجر فازداد الإبيريق بهذا الانكسار كمالاً
- لقد تحطم الإبيريق لكن الماء لم ينصب منه! وتحققت له من الانكسار مئة سلامة
- وكل جزء من هذا الإبيريق في رقص ونشوة، لكن هذا قد بدا للعقل الجزئي محالاً<sup>6</sup>.
- أدركت الكمال الإلهي، إته أمر في غاية الصعوبة لعل علمتها أيها الأعرابي! امتثلت بملايسة المادة والعدم للعقل البشري، إن ما هو مادي لا يدرك ما هو روحاني، وما هو معدوم لا يدرك ما هو خالد، على أنني أود تذكيرك بكمالك الذاتي وهو أعلى الكمال المادي الصوري :
- فأنت نائب الرحمن وخليفة الخالق<sup>7</sup>
- فكن على علم أن الملائكة التي لا مادة فيها أقل قيمة وكمالاً منك، لقد نلت رتبة الإحاطة والجمع بهذا الوجود عندما :
- علم آدم الملائكة في البدء ما يكون إلى الأبد بما اقتبسه من علم الهي
- فانتشيت من تعاليمه الملائكة ووجدت في تقدسه لله لونا آخر من التقديس
- فتلك الكشوف التي جلاها آدم للملائكة ما كانت لتتسع لها رحاب السموات الفساح
- لقد ضاقت عرصات السموات السبع أمام سعة هذا الروح الطاهر<sup>8</sup>
- فأحطت أنت بكل إمكانية الفيض فجمعت بين الحقائق الإلهية وهي الأسماء وحقائق العالم فكانت الروح صنوا المادة لديك، وهو ما لم يتيسر للملائكة التي هي روحانية فحسب، فيا أيها الأعرابي! عر ذاتك فأنت إنسان جسم وطبيعة وعقل وروح استمع إلى الملائكة تحدّث آدم مبيّنة شرف أفضليته عليهم :
- وأخذ كل ملك يقول : لقد كانت قبل الآن ألفة مع وجه الأديم
- لقد نسج جسديك الترابي من ذلك المكان، بينما وجد نورك الطاهر من هذا المكان<sup>9</sup>
- وذلك الذي وجدته أرواحنا من روحك كان من قبل ذلك بكثير يتألق من التراب<sup>1</sup>

1: هذه إشارة إلى الحديث: "كنت كنزاً مخفياً فأردت أن أعرف، فخلقت الخلق فعرّفني".

2: الكفافي: المثنوي، ص 342/1.

3: انظر الإشارة إلى هذا المعنى ابن عربي، رسائل ابن عربي، دار إحياء التراث العربي، بلا، ص 3.

4: الكفافي، المثنوي، ص 322/1.

5: الكفافي، المثنوي، ص 337/1.

6: الكفافي، المثنوي، ص 343/1.

7: شتا، إبراهيم الدسوقي "مثنوي مولانا جلال الدين الرومي"، المجلس الأعلى للثقافة، 1996، 6 أجزاء، ص 252.

8: الكفافي، المثنوي، ص 323/1.

9: المقصود بـ " ذلك المكان " الأرض و " هذا المكان " العالم الروحي .

فأنت أيها الإعرابي كائن جسمانيّ وطبيعيّ وعقليّ وإلهيّ ولا يدانيك في هذه الصفات كائن آخر لقد سماك "ابن عربيّ" العالم الأصغر وكذلك سائر الحكماء<sup>2</sup>، أما أنا فأدعوك بالعالم الأكبر؛ لأن:

- "العالم الأكبر قام بالسحر بقدرته فجعل نفسه مطويًا في أصغر صورة"<sup>3</sup>

لقد جئت بعد الحقّ في الرتبة ولأنّ الكمال علة الفيض فإن كمال الفيض سرى على عالم الملكوت ، ثم على عالم الجبروت وهو عالم النفوس البشريّة، ثمّ على القوى الحيوانيّة، ثمّ النباتيّة، ثمّ سائر أجسام العالم السفليّ<sup>4</sup> إله كمالك بالنسبة إلى غيرك ، وهكذا ترفعت في الرتبة على الحيوان والنبات ولكن عليك أن تدرك أنّ هذه الدرجة لم تتحقّق لك إلا بفضل الأنبياء والأولياء والمرشدين :

- كما أنّ المرتبة الحيوانيّة تكون أسيرة للمرتبة الإنسانيّة تكون أسيرة للمرتبة الإنسانيّة فريسة لها .

- فإن مرتبة الإنسان على أيدي الأولياء ، اعلم أيها العظيم أنّها فريسة كالحيوان<sup>5</sup>

فلتعلّ أيها الإنسان ! أنت أيها الإعرابيّ ! أنا ، نحن لنسبُ بروحنا ناشدين كمالنا الذي أفضنا منه من عالم الملكوت . هكذا أراد الرومي أن تصل رسالته إلى كل صوفي يبحث عن المعارف الإلهية قائلاً :

" حاشا لله ، هذه ليست حكاية حذارٍ، إنّها أحوالنا وأحوالك الحاضرة

فالإعرابيّ هو نحن ونحن أيضاً الجرة ، ونحن الملك كلنا"<sup>6</sup> .

وأخيراً فإن مولانا جلال الدين اتخذ من القصة مدخلاً إلى عقل الإنسان ليغرس فيه ما يريد من روحانيات وأراء واتجاهات فنيبهه إلى كماله من خلال صورته التي تمثل جزءاً من الصورة الأشمل للكمال من خلال صلته بالكون الذي حوله ومكانته فيه ، فهو الذي اختزل في داخله مكنونات وعوالم متعددة حائلياً على طلب الحقائق فيتحوّل بها من علم التحو إلى عالم المحو ، ومن القبض إلى الانبساط ، ولن يتم له ذلك إلا بخروجه من الإثنية والمصالحة مع متضاداته ، فلا تعود شخصية موسى وفرعون:

"وعندما تصل إلى مرحلة اللالون التي كانت لك في الأصل فإنّ الوفاق يتمّ بين موسى وفرعون"<sup>7</sup>.

وباتباع الأنبياء لأنّ رسالاتهم خرجت من مشكاة واحدة، وكذلك الأولياء والعارفين لأنهم الصورة المعنويّة المثلّي للإنسان الواصل إلى درجة الكمال.

إنّها همسة تربويّة من مولانا جلال الدين الرومي مفادها التفكير في كل شيء في الطبيعة حولنا في النبات في الحيوان في خلقنا ليسموا الإنسان إلى غاية الإسلام على مراتب الرقي لنعيش معاً شاهدين فحوى بعثة الرسول محمد (ص) : إتمام مكارم الأخلاق .

#### مراجع البحث:

- الحكيم سعاد، "المعجم الصوفي" بيروت، دندرة للطباعة والنشر، ط1، 1981.
- دالريمبل ، وليام " جلال الدين الرومي ينافس شعراء الحدانّة الأمريكيّة "، ترجمته بتصرف ، مريم جمعه فرج عن الخليج الثقافي، الأنترنت.
- ابن الدباغ ، "مشارك أنوار القلوب ومفاتيح أسرار الغيوب " ، تحقيق ريتز ، دار صادر ، بيروت
- شتا، إبراهيم الدسوقي "مثنوي مولانا جلال الدين الرومي" المجلس الأعلى للثقافة، 1996، 6 أجزاء
- شيميل انيماري ، " الشمس المنتصرة ، دراسة آثار الشاعر الإسلامي جلال الدين الرومي " ، ترجمة عيسى العاكوب ، ط أولى ، مؤسسة الطباعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي.

1: الكفاي ، المثنوي ، ص: 1/ 250 وما بعدها .

2: مولوي ،مراد" التربية الاجتماعية عند جلال الدين " ، ص : 253 .

3: شتا ، مثنوي ، 1/ 238 .

4: ابن الدباغ ، "مشارك أنوار القلوب ومفاتيح أسرار الغيوب " ، تحقيق ريتز ، دار صادر ، بيروت ، ص : 42 .

5: شتا ، مثنوي ، 1/ 237 .

6: شتا ، إبراهيم ، مثنوي ، ص : 1/ 237 .

7: شتا ، إبراهيم ، مثنوي ، ص : 1/ 235 .

- الكفافي ، محمد عبد السلام ، "مثنوي جلال الدين الرومي " المكتبة العصرية، صيدا ، بيروت
- كليب ، سعد الدين "البنية الجمالية في الفكر العربي الإسلامي" ط1.
- ابن عربي، " رسائل ابن عربي " دار إحياء التراث العربي ، بلا ت.
- " فصوص الحكيم " تحقيق وتعليق: أبو العلا عفيفي دار العربي، بيروت ، بلا ت.
- مولوي مراد كمال الدين " التربية الاجتماعية عند جلال الدين " ط 1 ، 2003، دمشق.
- " قصص مثنوي مولانا جلال الدين الرومي " ط ، 2001.